عن الفهم والتأويل والحلقة الهرمينوطيقية

On understanding, interpretation, and the hermeneutic circle

أ.د تيرس هشام*[1]
جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس، (الجزائر)،
hichem.tires@yahoo.fr

تاريخ الارسال2026-07-07 تاريخ القبول 2026-08-29 تاريخ النشر 2026-09-20

ملخص:

يتناول هذا المقال بالدراسة والتحليل مفهوما محوريا من مفاهيم الدرس الهرمينوطيقي، يتعلق الأمر بمفهوم الحلقة الهرمينوطيقية وهو مفهوم قديم يقوم على ثلاثة مراحل هي التخمين والتفسير والاستيعاب، وهي المراحل التي ينبني عليها فهم النصوص وكل مواد التعبير التي يراد فهمها وتأويلها، ومن هنا تلقي الدراسة الضوء على مجمل التصورات والمفاهيم التي ارتبطت بالحلقة الهرمينوطيقية وما يقترب منها من مفاهيم في حقول معرفية مجاورة.

الكلمات المفتاحية: حلقة، هرمينوطيقا، فهم، تأويل.

Abstract:

This article examines and analyzes a central concept in the field of hermeneutic studies, specifically the concept of the hermeneutic circle. This ancient concept is based on three stages: conjecture, interpretation, and understanding. These stages form the foundation for comprehending texts and all forms of expression that are to be understood and interpreted. The study, therefore, sheds light on the various ideas and concepts associated with the hermeneutic circle, as well as related concepts in neighboring fields of knowledge.

Keywords: Circle, hermeneutic, understanding, interpretation.

1- مقدمة:

إذا كان بلوغ الفهم – فهم النّصوص– على اختلاف موادّ تعبيرها وبصرف النظّر عن التصوّر المعرفيّ الذي يُربط به ذلك الفهم هاجسا أكبر جعله الرّهان الأوّل والتّقليدي للدّرس الهرمينوطيقيّ قديمه وحديثه على السّواء، فإنّ هذا الأخير قد أدرك بالمقابل أنّ الفهم المبتغى دونه تعامل معقّد متشابك الأطراف مع مادّة الفهم، وهو التّعامل الذي يتخذّ صورة القراءة في حالة النّص المكتوب.

ولعلّ أهميّة الفهم والمركزيّة التي حظي بها في التّقاليد الهرمينوطيقية العريقة أن تكون في كثير من الأحيان وراء لبس قد يعتري علاقته بالتّأويل من حيث إنّ هذا الأخير هو الامتداد التاريخي والذّراع العمليّة للفكر الهرمينوطيقيّ فلطالما استعصى التّمييز بين التّأويل من حيث هو نتيجة ما يفرزها تعامل ما مع المادّة المؤوّلة (لا من حيث هو

*أ.دتيرس هشام.

إجراء أو طريقة متّبعة) من جهة و بين الفهم من حيث هو أيضا غاية ينشدها أيّ تأويل من جهة أخرى، الأمر الذي يعضّد شرعيّة تساؤلات من قبيل الآتي: هل يمكن بصفة عمليّة المطابقة أو المماهاة بين الفهم و التّأويل؟

2- عن الفهم والتأويل:

وإذا كانت الهرمينوطيقا بطبيعة تقاليدها التّاريخية وأعرافها المعرفيّة تأنف الجنوح إلى الإجابات القطعيّة والجاهزة فإنّ تراكما من المقاربات في هذا المجال يمكن أن يقود في اتّجاه القول بوجود تصوّرين على الأقلّ يحاولان تجلية العلاقة بين المفهومين، فأمّا التصوّر الأوّل فهو الآخذ من التّقليدية والبداهة بطرف كبير ويقوم على أنّ التّأويل إنّما هو إجراء أو أداة أو "مسار" تكون نهايته الطبيعية ونتيجته المنشودة هي بلوغ الفهم، بغضّ النّظر عن طبيعة التّوصيف المعرفي أو النفسي الذي يمكن أن يعطى لهكذا فهم، وهذا التّصور الأوّل هو الذي هيمن في واقع الأمر على مجمل الممارسات التّأويليّة والهرمينوطيقية التي لا تنفك عنه إلاّ نادرا حتى في أخلص التصوّرات الفلسفية للهرمينوطيقا على اعتبار أنّ التّأويل كان دائما طاقة إنتاجية ومفتاحا ذكيّا لكثير من مستغلقات النصوص والظّواهر على السّواء.

أمّا بالعودة إلى التّصور الثاني للعلاقة بين الفهم والتّأويل فيمكن القول بأنّه من تبعات دخول الفكر الهرمينوطيقيّ على خطّ الممارسات التّأويليّة، حيث ينتقل التّأويل هنا من مجرّد أداة في يد مؤوّل يبتغي بها فهما إلى لحظة مهمة في الفعل التّأويلي لا تقلّ أهميّة عن الفهم ذاته إن لم تكن متلبسّة به، وبهذا يصبح التّأويل والفهم لحظتين متزامنتين متداخلتين يصعب- وقد يستحيل- أيّ جهد للفصل بينهما، وجريا على ما ذهب إليه **ريكور** فإنّ "التّأويل حالة خاصّة من حالات الفهم.هو الفهم حين يُطبَّق على تعبيرات الحياة المكتوبة "[1] أو هو "في حقيقته فهم متطوّر، وإيضاح لبنية الظّاهرة بوصفها هذه أو تلك "[2]، و كأنّنا بالفهم الذي يمارَس – دونما شعور في أغلب الأحايين- في معالجة الظّواهر وتلقّيها وتطويعها ومن ثمّ التّعايش معها يستحيل حينما يتعلّق الأمر بالنّصوص المكتوبة – ومن منظور اصطلاحيّ على الأقل- إلى تأويل يكون تتويجه الفهم، وبعبارة أخرى، وانطلاقا من عالميّة الفهم التي طالما كانت حجر الزاوية في البناء الهرمينوطيقيّ المعاصر فإنّ الفهم يكتسب شمولية من حيث هو طاقة في استجلاء الظّواهر واستظهار مكامنها، ويكون التّأويل بالتّالي مجرّد تمظهر من تمظهرات الفهم يجد طريقه للتجليّ عندما تكون الظّاهرة نصّا ثبّتته الكتابة، وعلى ذلك "فالتّأويل ليس واقعة ثانويّة لاحقة تكمّل الفهم، بل إنّ الفهم بالأحرى هو تأويل دائما، ومن هنا فإنّ التّأويل هو الفهم بشكله الصّريح"[3].

وعودا إلى فعل القراءة، قراءة النّصوص، فإنّه هو الآخر لا يفتأ يتماهى مع فعل التّأويل، ولا يستدعي الأمر كثيرا من الغرابة إذا ما أُعتبر في الحسبان أنّ كلاّ من الفعلين يدور في فلك كونه طاقة خلاّقة منتجة تسعى إلى الاستثمار في النّصوص ومحاورة فواعلها واستكشاف طبقاتها، "فالقراءة مع الفهم هي دائما نوع من إعادة الإنتاج، والأداء والتأويل"[4]، وفي أثر ذلك، تتعمّق الحاجة أكثر إلى فحص التّساؤل المشروع المتجدّد حول توصيف دقيق يمكن أن يُعطى لفعل قراءة و/ أو تأويل نصّ ما .

3- في مفهوم الحلقة الهرمينوطيقية:

لعلّ رجوعا بسيطا إلى تاريخ الهرمينوطيقا وتنقيبا في حفريّات تعاملها مع هكذا تساؤل، يشير بلا مواربة إلى أنّ جلّ الإجابات أو المقاربات التي اقترحتها كانت تنطلق من مفهوم لا يفتقر إلى لبس أو غموض على ما يوهم به بداية من بداهة، ويتعلّق الأمر بما يكاد يكون المفهوم الأشـــهر للهرمينوطيقيا قديما وحديثا وهو مفهوم الدّائرة الهرمينوطيقيّة أو الحلقة الهرمينوطيقيّة (le cercle herméneutique) الذي اتخذ تمظهرات عدّة منذ ظهوره في الدّراســـات التّأويلية الغربيّة القديمة، ولعلّ أولى تلك التجليّات كان مع قراءة الكتاب المقدّس بعهديه القديم و الجديد، حيث "كان الإنجيليّون يقرأون الإنجيل العبري على ضـــوء الأحداث اللاّحقة عليه، ويقرأون الأحداث الأخيرة على ضـــوء ما جاء في الكتاب العبري. وهذا أيضـــا مثال جيّد على دائرة الهرمينوطيقا المغلقة، الذي يعني ببســـاطة: أنت تأخذ الأحداث المرويّة لتؤسّـــس أطروحة كونيّة، ثم تســـتعمل هذه الأطروحة الكونيّة لتفسّـــر وتؤكّد حقيقة الرّوايات المرويّة بكلّ تفاصـيلها. مثل أيّ نشـاط هرمينوطيقيّ، إنّه يدخلك في الدّائرة المغلقة"[5]، وهي حلقة محكمة بحيث لا يملك قارئ النّص خيار الخلاص منها.

وإذا كان ذلك كذلك من حيث علاقة العهدين القديم والجديد بحياة المرء والتّأثير الذي يمكن أن يمارســـاه عليها ممّا يشكّل علاقة تتجاوز المعطى النّصي في حدّ ذاته إلى علاقات خارج نصيّة تتحكم فيها معطيات تداوليّة متعدّدة، فإنّ سطوة الحلقة الهرمينوطيقيّة لا تقلّ عن ذلك أيضا عندما يتعلّق الأمر بتلفظات النّصوص واشتراطاتها، "فمثلا تأويل الإنجيل، كما يرى **دلتاي** ينبغي أن يُفهم كلّ كتاب وكلّ مقطع في ضوء الدّلالة العامّة لمجموع الكتب، وهذه الدّلالة الشّاملة تتشكّل بالاستناد إلى فهم كلّ جزء على حدة"[6]، ولا يقتصر هذا على الكتاب المقدّس عند الغربيّين بحكم وجود نسخ عدّة تقتضي مراعاة كلّيتها أثناء القراءة وإنّما يتعدّاه ليصحّ على النّص الواحد، حيث إنّ "الدّائريّة في الإجراء التّأويلي تنسحب على العلاقات بين معاني الكلمات المفردة ضمن أيّة جملة و بين معنى الجملة الكلّي، كما تنطبق على العلاقات بين معاني الجمل المفردة في العمل الأدبيّ والعمل الأدبي ككلّ"[7]، حيث لا يمكن اســـتيعاب النّص المقروء و/أو المؤوّل في كليّته إلاّ من خلال التّدرّج في فهم واســـتيعاب مكوّناته وأجزائه منفردة، كما أنّ هذه الأخيرة لن تُفهم إلاّ في ضـــوء ما توجّهنا به كليّة النّص في مجموعها، فلا فهم للكلّ إلاّ من خلال الجزء ولا فهم للجزء إلاّ في ضـوء فهم الكلّ، و هي الجدليّة الغريبة التي قد تكون السّـر وراء شـيوع مفهوم الحلقة الهرمينوطيقيّة وجاذبيّته في آن.

ولعلّ ارتباط التراث المقدّس بالتّقاليد البلاغيّة القديمة كان وراء ترســـيخ ربط مفهوم الحلقة الهرمينوطيقيّة بعاملي الجزء والكلّ في نصّ معطى، حيث "إنّ القاعدة التّأويليّة التي تعتبر أنّ الكلّ ينبغي أن يفهم انطلاقا من الجزء والجزء انطلاقا من الكلّ هي وليدة الخطابة القديمة. فقد عمل فنّ التّأويل في العصـــور الحديثة على نقلها من فنّ الخطابة إلى فنّ الفهم.في كلتا الحالتين يتعلّق الأمر بعلاقة دوريّة. الاستحضـار المسـبق للمعنى – الذي بفضـله

يُدرك الكلّ-لا يثير فهما واضـــحا إلاّ إذا حدّدت الأجزاء – المحدّدة تبعا للكلّ – بدورها هذا الكلّ"[8]، وهذا التصوّر سرعان ما تلقّفته الهرمينوطيقا السّاعية وراء فحص أدقّ حثيّات تأويل النّصوص.

لقد تســـرّب مفهوم الحلقة الهرمينوطيقيّة ودائريّتها المغلقة من دائرة اهتمام النّص المقدّس وملازماته البلاغيّة والخطابيّة إلى غمار الدّرس الهرمينوطيقيّ على غرار كثير من المفاهيم التي تلقّفها هذا الأخير، وهنا أيضـــا ســـنجد الأب الرّوحي **شليرماخر** من روّاد المهتّمين بمفهوم الحلقة، إذ فضلا عن فصله الشّهير بين التّأويل النّحوي من جهة والتّأويل التّقني(النّفسي) من جهة أخرى باعتبارهما مسارين متمايزين ومتلازمين في آن أثناء النّص، فإنّه انتبه أيضا إلى أنّ تأويل و/أو قراءة النّص إنّما تتمّ ضمن جدليّة الجزء والكلّ، وهو يصف هذه الجدليّة المتّخذة اسم الحلقة بأنّه "من أجل تحصيل رؤية شاملة عن النّص بكليّته، لا بدّ أن نعطي اهتماما مناسبا للتّفاصيل و الخصوصيّات. ولكن لا يمكن معرفة ميزة هذه التّفاصيل والخصوصيّات من دون وجود رؤية واضحة عن النّص بأكمله. أي أنّنا، نبدأ بالفكرة الكبيرة، ثمّ نقرأ تفاصيل النّص بوضوح على ضوء هذه الفكرة، ثمّ نستعين بالنّص لتثبيتها."[9] فيكون النّص بالتّالي محطّة مهمّة ضمن التصوّر القائم على فكرة الكلّ والجزء.

والواقع أنّ التّوصيف الذي يقترحه **شليرماخر** للحلقة الهرمينوطيقية وبالرّغم من الانطباع الأوّلي الذي يوحي بعدم تقديمه الشّـيء الجديد قياسـا إلى التصـوّر البلاغيّ القديم حول الكلّ والجزء، إلاّ أنّه ومن خلال الحديث عن الاستعانة بالنّص في مرحلة متأخّرة من مراحل القراءة لتثبيت تصوّر كليّ أوّلي يشير بوضوح إلى التّطوّر الذي طرأ على مفهوم الحلقة عند الهرمينوطيقيّين، حيث انتقل الاهتمام إلى محاولة وضع تصوّر أدقّ لمراحل الحلقة من خلال تمييز كلّ مرحلة سواء بالاصطلاح عليها بمصطلح خاصّ أو حتّى بالبحث في خصائصها المعرفيّة والنّقديّة وانعكاس ذلك كلّه على النّص والقارئ معا وكذا على نتائج الفعل القرائي/التّأويليّ.

إنّ قيام الحلقة الهرمينوطيقيّة على ما يشبه المسار الذي ينتقل من تصوّر كليّ في مرحلة أولى إلى تفحصّ للأجزاء في مرحلة ثانية ثمّ إلى تعديل للتصوّر الكليّفي ضوء ما أقرّته الأجزاء في مرحلة ثالثة أرسى ما يمكن اعتباره أشبه بالإجماع حول ثلاثية عناصر الحلقة وإن اختلفت التّفاصيل و المصطلحات التي ربطها كلّ قطب من أقطاب الهرمينوطيقا بتلك اللّحظات الثّلاث المؤسّسة للحلقة أو بالأحرى المؤطّرة لفعل القراءة و/أو التّأويل، ولعلّ **بول ريكور** بحكم اشتغاله على قضايا أكثر قربا والتصاقا بمسائل النّصوص وتفاصيلها أن يكون مستوعبا وموجزا لحيثيّات الجدل داخل أطر الحلقة الهرمينوطيقيّة حيث يقول:

"...، أقترح وصف الجدل أوّلا كنقله من الفهم إلى التّفسير، ثمّ كنقله من التّفسير إلى الاستيعاب. في المرّة الأولى، سيكون الفهم إمساكا ساذجا بمعنى النّص ككلّ. وفي المرّة الثّانية، سيكون الاستيعاب نمطا معقّدا من الفهم تدعمه إجراءات تفسيريّة. في البداية، الفهم مجرّد تخمين. وفي النّهاية، يرضي الفهم مفهوم التّملك ..."[10]، وبالتّالي فنحن الآن أمام توصيف مصطلحاتي أكثر وضوحا: فهم في مراحله الأولى السّاذجة ما يجعله أقرب إلى التّخمين الآخذ من الذّاتية والاعتباطيّة بطرف كبير، ثمّ تفسير ينحو نحو وضع مخلّفات التّخمين على محكّ النّص وتضاريسه من خلال ما يقرب من الإجراءات المعلومة، ثمّ فهم أخير أو استيعاب أو ما يمكن وسمه بالتّأويل (نتيجة لا مسارا)

وهو المحصـــول الذي يخرج به المؤوّل من النّص بغضّ النّظر عن أيّ اعتبار معياريّ أو حكم قيميّ أو نزعة وثوقيّة يمكن أن يصادر بها هذا التّأويل/الاستيعاب.

لقد كان **غادامير** قد لاحظ أيضـا قبل ذلك أنّ الهرمينوطيقا الرّومانسـيّة التّقليديّة ميّزت "بين القدرة على الفهمsubtilitas intelligendi (الفهم) والقدرة على التّفســير subtilitas explicandi (التّأويل)؛ وأضـافتّ الحركة التّقويّة عنصـرا ثالثا وهو التّطبيق application كما لدى **جي.جي. رامباخ**. فكانت عمليّة الفهم تتكوّن من هذه العناصر الثّلاثة. واللاّفت للنّظر أنّ جميع هذه العناصر تسمّى قدرات subtilitas. فلقد عُدَّت بمثابة مواهب تحتاج إلى عقل مرهف أكثر ممّا هي مناهج تقع في نطاق تصرّفنا"[11]، وهذه العناصر الثّلاثة: الفهم والتّفسير والاستيعاب (على اختلاف المصطلحات التي تشير إليها) إن لم تكن مناهج صارمة أو إجراءات واضـحة تُتبَّع فإنّها أيضـا ليسـت محاولة لتقنين فعل القراءة/التّأويل أو توجيهه في وجهة معيّنة، كما أنّها ليسـت محطّات منفصـلة معزولة أثناء ذلك الفعل وإنّما هي تمثّل سـيرورة مكتملة مغلقة ليس الفصـل بين عناصـرها سـوى إجراء توضيحيّ.

4- عن الحلقة وآليات القراءة:

كما يمكن القول بأنّ كثيرا من النّظريّات النّقدية المعاصـرة وعلى رأسـها نظريّات القراءة والتّلقيّ قد أفادت بشـكل جلّي من المتصّورات التي قدّمتها الحلقة الهرمينوطيقيّة من جهة، وأسـهمت في تجلية أكبر وأدقّ لمراحلها من جهة أخرى، فهذا **ميشال أوتن** مثلا يقترب من مفهوم الحلقة عندما يشير ضمن توصيفه لسيميولوجيّة القراءة إلى أنّه "عندما يندرج القارئ في النّص، فإنّه يكوّن فرضـيّة عامّة عن المضـمون العامّ لهذا الأخير. فهناك إذن حدس بتتمّة النّص، يتلوها التّأكيد ممّا إذا كان النّص يسـتجيب للانتظار، وإذا ما ظهرت على العكس من ذلك بعض الدّلالات غير المتوقّعة، يحدث عندئذ ما نسـمّيه بالمفعول الارتجاعيّ أي إعادة صـياغة وتصـحيح ما تمّ إدراكه في السّابق"[12]، وهو ما أشـار إليه أيضـا **ميكائيل ريفاتير** في حديثه عن القراءة الأولى الاستكشـافية (la lecture heuristique) التي تندغم معها مرحلة ثانية تالية هي مرحلة القراءة الاسـترجاعيّة أو التّأويلية القائمة على تعديل نتائج المرحلة الأولى في ضوء معطيات نصيّة[13].

لقد تعددّت المحاولات التي رمت إلى إيجاد مرجعيّة تاريخية أو خلفيّة نظريّة لكلّ عنصـر من عناصـر الحلقة الهرمينوطيقيّة والتي انزلقت في أحايين عدّة إلى الإسـقاط غير المؤسّـس أو القائم على الأقيسـة البعيدة في أحسـن الأحوال، من ذلك حديث **ريكور** عن قابليّة المماثلة بيت التّخمين (أو الفهم في الثلاثيّة) وما يسـمّيه **شـليرماخر** بالتّكهّني أو التّأويل النّفسـي من جهة، وكذا بين التّصـديق (أو التّفسـير في الثلاثية) وما يسـمّيه **شـليرماخر** بالقواعديّ أو التّأويل النّحوي من جهة أخرى وعن كون المرحلتين (بالتّسـميتين) ضـرورتين لعمليّة قراءة النّص[14]، وغير بعيد عن ذلك أيضـا تلك المحاولات التي يضـطلع بها بعض الباحثين العرب رامين إلى التّدليل على تماثل بين عناصـر الحلقة تحديدا وبين بعض المفاهيم والمصـطلحات التّأويليّة في المرجعيّة العربيّة والإسـلاميّة من قبيل حديث

فريد الزّاهي عن كون التّفسير كما عرفه التّراث العربيّ الإسلاميّ (خاصّة في رحاب القرآن الكريم ومقابلته في ذلك للتأويل) إنّما يقابل (بمعنى المماثلة هذه المرّة) الفهم في الهرمينوطيقا الغربيّة[15].

وليس يحتاج النّاظر إلى كبير تدبّر كي يتبيّن ما في مثل هذه الطروحات من استعجال واختزال للمفاهيم وسطحيّة في فهم المتصوّرات، وذلك لأسباب بسيطة جدّا، لعلّ أن يكون أبرزها أنّ الهرمينوطيقا عندما تتحدّث عن العناصر الثلاثة للحلقة: الفهم والتّفسير والاستيعاب فإنّها لا تقصد البتّة إلى ثلاث طرائق أو وسائل أو مسارات مختلفة يمتلك القارئ أو المؤوّل خيار سلوك أحدها أو جميعها معا مثلما هو الحال ضربي **شليرماخر** التّأويليّين أو حتّى ثنائيّة التّفسير والتّأويل في تراثنا التأويلي، حيث في الحالتين يكون القارئ/المؤوّل حرّا في اختيار المسار الذي يشاء فنجد التّفسير لسورة من سورة القرآن منفصلا تماما عن تأويل أو تأويلات تُعطى للسّورة ذاتها، و الأمر سيّان حين نفضّل التّأويل النّحوي على نظيره التّقني أو العكس؛ أمّا في حال الحلقة فالأمر مختلف أشدّ الاختلاف، فنحن أمام لحظات متلازمة يستحيل على أيّ فعل قرائيّ مهما كانت درجة تأويليّته الفكاك منها، كما يستحيل أيضا فصل تلك اللّحظات بعضها عن بعض.

إنّ استحالة إفلات الفعل القرائيّ من اللحظات التي وصّفتها لنا الحلقة الهرمينوطيقيّة إنّما يرجع أساسا إلى أنّ تلك اللحظات لا تقتصر على المنتوج النّصي بل تتعدّاه إلى كلّ المدرَكات القابلة للفهم مهما كانت مواد تعبيرها، حيث "إنّ الفهم يربط بفضل الحلقة التّأويلية بين ذات وموضوع، وهذه الحلقة التي هي حلقة "منهجيّة" شأنها شأن الشّك **الدّكارتي**، تذوب بمجرّد ما تدرك الذّات فهم الموضوع فهما تامّا"[16]، ومن ثمّ فإنّنا نكون أمام عمليّة ثلاثيّة لا يشذّ عنها أيّ فعل إدراكيّ.

من أجل ذلك فإنّ الحلقة الهرمينوطيقيّة ذات الجذور البلاغية والخطابيّة القديمة القائمة على الجزء والكلّ والتي طوّرتها الهرمينوطيقا المعاصرة إلى صيغة ثلاثيّة المراحل ليست محض اكتشاف هرمينوطقيّ لا سيما من زاوية الاهتمام بالفعل الإدراكيّ، حيث لطالما شكّل هذا الأخير بؤرة اهتمام مجالات معرفيّة عدّة لعلّ من أهمّها وأوشجها علاقة بالهرمينوطيقا مباحث السّيميوطيقا خاصّة تلك التي جاءت على يدي الأمريكيّ **شارل ساندرس بورس**، حيث إنّ الحديث عمّا قدّمه هذا الأخير تحديدا "هو حديث عن تصوّره لعمليّة الإدراك: إدراك الذّات وإدراك الآخر، إدراك "الأنا" وإدراك العالم الذي تتحرّك داخله هذه " الأنا". وهذا أمر في غاية الوضوح في تصوّر **بورس**، فلا شيء يوجد خارج العلامات أو بدونها ولا شيء يمكن أن يدلّ اعتمادا على نفسه دون الاستناد إلى ما توفّره العلامات كقوّة للتّمثيل، فالتّجربة الإنسانية بكافة أبعادها ومظاهرها تشتغل في تصوّر **بورس** كمهد للعلامات: لولادتها ونموّها وموتها"[17]، ممّا يعني بأنّ السّيميوطيقا في جوهرها إنّما هي بحث في السّيرورات الإدراكية على اختلاف أنواعها وموادّها وطرائق اشتغالها.

إنّ توجّها كهذا الذي نحته سيميوطيقا **بورس** جعلها تنأى بنفسها بشكل واضح عن أدبيّات كثيرة استظلّت تحت مظلّة السيميائيات الواسعة وأحاطت نفسها بهالة منهجيّة كبيرة وترسانة مصطلحية ومفهوميّة أكبر

جعلت السّميائيات تبدو وكأنّها مجرّد إجراء براغماتي في فكّ شفرات الموادّ التّعبيرية المختلفة، ولعلّ أقرب مثال على ذلك ما مثلته مدرسة باريس، إذ "إنّ مشكلة سيميائيّات شكلانيّة صارمة من قبيل تلك التي أرساها **غريماس** تكمن في إقصائها للذّات والتّأويل وإصرارها على نسقيّة وصلابة البناء النّظري وتجاهلها للمشكلات التّجريبيّة الفرديّة الخصوصيّة والطّارئة [.....] فإنّ سيميائيّات تعتمد حصرا على المعطيات اللّسانيّة وتقصى كلّ رجوع إلى العلوم الأخرى، ولا تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الذّاتية الإدراكية في بلورة الدّلالة النّصيّة، لا يمكنها إلاّ أن تعاني من انغلاقها على ترسانتها المفاهيميّة والاصطلاحيّة، وتنتهي إلى نفي العلاقات المتطوّرة بين الإنتاج والتلّقي والتأويل"[18]، ومن ثمّ تشكّل سيميوطيقا **بورس** ما يشبه الاستثناء في حقل المنظومات النّقدية المعاصرة التي اهتمّت بالعلامة.

ولقد يكون التّصوّر الذي قدّمه **بورس** للعلامة من أهمّ الأرضيّات الصّلبة التي ميزت طروحاته، وقد أفاد في ذلك التصوّر من ثقافته الواسعة ومرجعيّاته المعرفيّة والفكريّة المتعدّدة، "إذ لا يشكّل التّعريف الذي يقدّمه **بورس** للعلامة سوى الوجه المرئي لقاعدة فلسفية ترى في التجربة الإنسانيّة كلّها كيانا منظّما من خلال مقولات ثلاث هي الأصل والمنطق في إدراك الكون وإدراك الذّات وإنتاج المعرفة وتداولها. فلا حدود تفصل في الظّواهر بين المرئي والمستتر، بين الممكن والمتحقّق، فكلّ ما يؤثّث هذا الكون يشكّل وحدة تامّة. ومع ذلك فإنّ التّنظيم المفهومي للتّجربة الإنسانيّة يقتضي منّا الفصل بين المستويات والمظاهر والمجالات"[19]، فثلاثية العلامة عوضا عن ثنائيّتها كما شاع في كثير من الأدبيّات هي حجر الزّاوية في فهم تصوّر **بورس** للعمليّة الإدراكيّة برمّتها.

تأسيسا على ذلك يمكن القول بأنّ تصوّر **بورس** للعلامة يقوم على عناصر ثلاثة تقوم بدورها على مقولات ثلاث هي الأوّلانيّة (priméité) والثّانيانيّة (secondéité) والثّالثانيّة (tiercéité)، وقد قدّم الباحث **سعيد بنكراد** شروحات وافية لهذه المقولات، إذ هناك الإمكان (الأوّلانيّة) والتّحقق أو الوجود الفعليّ (الثانيانيّة) والقانون الذي يحكمها وهو الثّالثانيّة، فجملة من قبيل **"لم يكن عيسى يتوقّع أنّ هذا اليوم سيأتي"** هي إمكان قد ينفتح على تحقّقات كثيرة (يتوقّع أن يتزوّج أو يسافر أو يعتقل .....إلخ)، غير أنّ أيّ تحقّق منها يفرض قانونا أي سيرورة تتوالى وفقها الأحداث وهو ما يمثّل الثّالثانيّة التي هي العلامات المتوسّطة بيننا وبين العالم، فالأوّل مرتبط بالكنيونة أي التّعبير عن الموجود في ذاته مستقلا عن أيّ شيء آخر، أمّا الثّاني فيعبّر عن الكنيونة في علاقتها بشيء آخر، في حين يقوم الثّالث بدور الوساطة بين الأوّل والثاني ضمن علاقة القانون والضّرورة والفكر[20].

إنّ هذه الإشارات العابرة والضروريّة في آن إلى سيميوطيقا **بورس** ليست للتّدليل على روابط معرفيّة متينة بينها والهرمينوطيقا، فهي واضحة ومتعدّدة ليس أوّلها ولا آخرها تلك الحوارات الحادّة والمثمرة التي جرت بين **ريكور** و**غريماس**، وإنّما الذي يعيننا هنا تحديدا هو تلك العلاقة بين التصوّرات الثلاثية عند **بورس** لا سيما منها تلك التي تكتسي طابعا فلسفيّا وبين التصوّر الثّلاثي الذي تقوم عليه الحلقة الهرمينوطيقيّة، ولعلّنا لا نعدم تجليّا من

تجليّات تلك العلاقة فيما أشـــار إليه **هيدجر** من مثلّث يقوم على الكائنات والكينونة والدّازاين ويجد تجســـيده في الفنّ عموما في مثلّث آخر هو الفنّان والعمل الفنيّ والفنّ، حيث يكون كلّ من الدّازاين والفنّ في الحالتين المذكورتين هما ما يمثّل الأصـل والضّـرورة والمنطلق والتّكشّـف[21]، وأوبة إلى الحلقة في التصـوّر الهرمينوطيقيّ دائما، يمكن القول بأنّ أوّل عناصرها وهو التّخمين إنّما هو فهم في حالة إمكان (الأولانية) مفتوحة على كلّ الاحتمالات أي التّحقّقات، هذه الأخيرة هي الاستيعاب (الثانيانية) الذي من خلاله يكون تعرّف الذّات (القارئ و/أو المؤوّل) على هذه المادّة المراد فهمها أو تلك. أمّا التّفسير (الثالثانية) المتعامل مع الواقعة النصيّة تعاملا مباشرا قد يتفاوت تبعا لمعطيات عديدة فيكون هو القانون أو الرّابطة التي تجمع بين التّخمين والاستيعاب.

5.خاتمة:

إذا كان جوهر الحلقة الهرمينوطيقيّة توصيفا للفعل القرائيّ أو التّأويلي وما يعتمل أثناءه على اختلاف الوقائع والموادّ المؤوّلة، فإنّ هذا لا يعني البتّة أن قضايا التّأويل مختزلة بأكملها في تلك الحلقة وعناصرها الثلاثة، كما لا يخفى على ناظر أيضا أنّ دأب الهرمينوطيقا لطالما كان البحث في مختلف الفواعل والحيثيّات التي تواكب فعل التّأويل من المؤلّف إلى القارئ (المؤوّل) مرورا بالنّص ووضع كلّ الإشكالات المتعلّقة بها على محكّ النّظر والتّمحيص، ولعلّ سؤالا تقليديّا أثيرا أثار من الفكر ما أثار هو ذلك الذي طرحته الهرمينوطيقا القائمة أساسا في رحاب النصّ الدينيّ حول طبيعة الصّعوبات والخصوصيّات التي يطرحها تأويل نصّ تراثيّ قديم تداولت عليه الأزمان والألسن والثّقافات.

6- الهوامش:

[1] بول ريكور، نظريّة التّأويل(الخطاب وفائض المعنى)، ط**1**،ترجمة: سعيد الغانمي،المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت/ الدّار البيضاء:**2003**،ص120.

[2] بول ريكور، الزّمان والسرّد، ج 3،ط1،تر: سعيد الغانمي وفلاّح رحيم، مراجعة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، لبنان: 2006، (الزّمان المروي)، ص ص 93 -94.

[3]هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج(الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)،ط**1**،ترجمة:حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة:جورج كتّورة، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، ليبيا:**2007**، ص418.

[4]المرجع نفسه، ص244.

[5]دايفيدجاسبير، مقدّمة في الهرمينوطيقا، ط**1**،ترجمة:وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر/الدار العربية للعلوم، لبنان:**2007**، ص ص 52-53.

[6] محمّد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات(فصول في الفكر الغربيّ المعاصر)، **ط1**،المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت/الدّار البيضاء:**2002**، ص 31.

[7]ميجان الرّويلي وسعد البازعيّ، دليل النّاقد الأدبيّ(إضاءة لأكثر من خمسين تيّارا ومصطلحا نقديّا معاصرا)، ط**2**،المركز الثّقافيّ العربيّ ،بيروت/الدّار البيضاء:**2000**، ص 48.

[8] هانس غيورغغادامير،فلسفة التّأويل(الأصول، المبادئ، الأهداف)، ط**2**،ترجمة:محمّد شوقي الزين، منشورات الاختلاف (الجزائر)/الدار العربية للعلوم (لبنان)/ المركز الثقافي العربي (بيروت/الدار البيضاء):**2006**، ص 119.

[9]دايفيدجاسبير، مقدّمة في الهرمينوطيقا، م م س، ص 39.

[10] بول ريكور، نظريّة التّأويل، م م س، ص 121.

[11] هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج، م م س، ص 418.

[12] ميشال أوتن،سيميولوجيّة القراءة، ضمن: نظريّات القراءة من البنيويّة إلى جماليّة التّلقي،ط**1**،ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية:**2003**، ص 111.

[13] ينظر: ميكائيل ريفاتير، الوهم المرجعيّ، ضمن: الأدب والواقع، ط**2**،منشورات الاختلاف، الجزائر:**2003**، ص 49.

[14] ينظر: بول ريكور، نظريّة التّأويل، م م س، ص 124.

[15] ينظر: فريد الزّاهي، النص والجسد والتأويل، د.ط، إفريقيا الشرق، بيروت/الدار البيضا:**2003**، ص 76.

[16] أنطوان كومبانيون،الفيلولوجيّة والتّأويلية، ترجمة:محمّد الوليّ،في:علامات، مجلة ثقافية، المغرب،ع**11**، **1999**، صص 43- 44.

[17] سعيد بنكراد، السّميائيّات والتّأويل (مدخل لسميائيّاتش.س.بورس)،ط 1،المركز الثقافي العربيّ ، بيروت/ الدّار البيضاء: 2005،ص 72.

[18] فريد الزّاهي، النّص والجسد والتّأويل، م م س، ص 45.

[19] سعيد بنكراد، السّميائيّات والتّأويل، م م س، ص 41.

[20] ينظر:المرجع السابق، ص 41 وما بعدها.

[21] ينظر: ج.هيو.سلفرمان، نصيّات بين الهرمنيوطيقا والتّفكيكية، ط**1**، ترجمة:حسن ناظم وعلي حاكم صالح،المركز الثّقافيّ العربيّ،بيروت/الدّار البيضاء: **2002**، ص ص 48- 49.

7- قائمة المراجع:

1. أنطوان كومبانيون، الفيلولوجيّة والتّأويلية، ترجمة:محمّد الوليّ،في:علامات، مجلة ثقافية، المغرب،ع**11**، **1999**.
2. بول ريكور، الزّمان والسرّد، ج 3، ط1،تر: سعيد الغانمي وفلاّح رحيم، مراجعة: جورج زيناتي، (لبنان: دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2006).
3. بول ريكور، نظريّة التّأويل(الخطاب وفائض المعنى)، ط**1**،ترجمة: سعيد الغانمي،(بيروت/ الدّار البيضاء:المركز الثقافيّ العربيّ، **2003**).
4. ج.هيو.سلفرمان، نصيّات بين الهرمنيوطيقا والتّفكيكية،ط**1**، ترجمة:حسن ناظم وعلي حاكم صالح، (بيروت/الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ،**2002**).
5. دايفيدجاسبير، مقدّمة في الهرمينوطيقا، ط**1**، ترجمة: وجيه قانصو، (الجزائر: منشورات الاختلاف/ لبنان: الدار العربية للعلوم، **2007**).
6. سعيد بنكراد، السّميائيّات والتّأويل (مدخل لسميائيّاتش.س.بورس)، ط 1، (بيروت/ الدّار البيضاء: المركز الثقافي العربيّ، 2005).
7. فريد الزّاهي، النص والجسد والتأويل، د.ط، (بيروت/الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، **2003**).
8. محمّد شوقي الزّين، تأويلات وتفكيكات (فصول في الفكر الغربيّ المعاصر)، **ط1**، (بيروت/الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ، **2002**).
9. ميجان الرّويلي وسعد البازعيّ، دليل النّاقد الأدبيّ(إضاءة لأكثر من خمسين تيّارا ومصطلحا نقديّا معاصرا)، ط**2**، (بيروت/الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ،**2000**).
10. ميشال أوتن،سيميولوجيّة القراءة، ضمن: نظريّات القراءة من البنيويّة إلى جماليّة التّلقي، ط**1**، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي، (سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، **2003**).
11. ميكائيل ريفاتير، الوهم المرجعيّ، ضمن: الأدب والواقع، ط**2**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، **2003**).

12.هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج(الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية)، ط1، ترجمة:حسن ناظم وعلي حاكم صالح، مراجعة: جورج كتّورة، (ليبيا: دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، 2007).

13.هانس غيورغ غادامير،فلسفة التّأويل(الأصول، المبادئ، الأهداف)، ط2، ترجمة: محمّد شوقي الزين، (الجزائر: منشورات الاختلاف/ لبنان: الدار العربية للعلوم/ بيروت/الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006).